التجارة والملاحة في البحر الأحمر في عصر المماليك
« دراسة تاريخية »

العبيدي، عبد العزيز بن راشد/التجارة والملاحة في البحر الأحمر في عصر المماليك: دراسة تاريخية (٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠م/٩٢٢هـ ـ ١٥١٩م). ـ الرياض: كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، ماجستير، ٢٥+٣٧٨ ص...

أولت الدول الإسلامية المتعاقبة عناية خاصة للتجارة مما أدى إلى إزدهار الخليج العربي الذي أصبح يعج بالبواخر التجارية القادمة من المشرق والمغرب. وقد أكسب الأمن الذي كانت تتمتع به الطرق وسهولة سير القوافل الحركة التجارية هذه دعماً متزايداً.

بجانب هذه الحركة التجارية التي إنتظمت طريق الخليج العربي فقد كانت هنالك حركة مماثلة على طريق البحر الأحمر إلا أنها كانت أقل نشاطاً ولكنها استمرت في الإزدهار خلال عصور الدولة الفاطمية ثم الدولة الأيوبية من بعدها والتي قام حكامها بدور كبير في انعاش التجارة على شواطىء البحر الأحمر وتوطيد الأمن على شواطئه.

وفي عصر دولة المماليك في مصر كانت تجارة البحر الأحمر في قمة إزدهارها نتيجة للنشاط التجاري العالمي في ذلك الحين بجانب الخراب الذي لحق بالطرق التجارية في آسيا بعد تعرضها لإجتياحات المغول والتي شملت المناطق الشرقية للعالم الإسلامي وأواسط آسيا وأخيراً بسقوط بغداد عاصمة العباسيين في إيدى المغول مما كان له أكبر الأثر في توقف التجارة في الخليج العربي.

أما دولة المماليك فقد قهرت المغول في عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وقضت على بقايا إماراتهم في الشام وفلسطين وبذلك توطدت لهم أركان الدولة ومن ثم اتجهوا إلى الاهتمام بالنواحي الاقتصادية والتجارية ونجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً كان له أكبر الأثر على البلاد الواقعة على شواطىء البحر الأحمر. فقد ازدهرت تجارتها وعجت بالحركة الموانىء وطرق القوافل التجارية وكثرت المنشآت التجارية والأسواق وأصبح الثراء هو السمة البارزة والمميزة لهذه المجتمعات.

أغرت هذه المكاسب التجارية سلاطين المماليك وحكام الحجاز واليمن فاتجهوا نحو الإحتكار والمبالغة في رفع الأسعار مما دفع بالأوربيين للبحث عن طريق آخر غير البحر الأحمر حيث اكتشفوا رأس الرجاء الصالح ووصلوا إلى البلاد الإسلامية من الجنوب وبدأ الصراع العنيف بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي الصليبي.

وقد بدأ الانهاك يعتري دولة المماليك واتجهت نحوها دولة العثمانيين وتوالت الهجمات عليها من الشمال والجنوب حتى لفظت أنفاسها عام ٩٢٣هـ وبسقوطها أسدل الستار على فصل مشرق من فصول التجارة العالمية وازدهارها على شواطىء البحر الأحمر.

تبدأ هذه الرسالة بتصدير شرح فيه الباحث سبب اختياره لهذا الموضوع ونبذة تاريخية عنه ثم قدم ملخصاً موجزاً لكل فصل من الرسالة. أعقب ذلك بذكر مصادر الرسالة المصرية والحجازية

واليمنية ومصادر الرحلات معرفاً لكل من هذه المصادر وما تحتويه فهارسها.

أما فصول الرسالة فقد جاءت كالتالي:ـ

تمهيد: تحدث فيه الباحث عن جغرافية البحر الأحمر، أهميته العالمية والتجارة والملاحة فيه من عصر صدر الاسلام وفي العصور الإسلامية المتلاحقة حتى قيام دولة المماليك كما ورد في كتابات المؤرخين والجغرافيين المسلمين.

الفصل الأول: ازدهار التجارة والملاحة في عصر المماليك: وقد استهل بلمحة موجزة عن الحالة السياسية في حوض البحر الأحمر اشتملت على قيام دولة المماليك في مصر وتطورها، وكذلك الدولة الرسولية باليمن، والأشراف في الحجاز. كما تطرق للحالة السياسية على الجانب الغربي للبحر الأحمر لممالك الطراز الاسلامي. ثم شرح الباحث في بيان عوامل الازدهار وأهمها تدهور الطريق التجاري الشرقي، ومحاولة تحسين العلاقات مع المغول في فارس والعراق، والعلاقات بين دول البحر الأحمر نفسها، وجهود المماليك في حفظ الثغور وتأمين الطرق البرية وتأديب الأعراب، وتقوية الاسطول، ومحاربة القراصنة. وكذلك تطور العلاقات التجارية مع أوربا وبلاد الشرق والنهوض بالزراعة والصناعة.

وقد ضم الفصل بيان لجهود حكام اليمن الرسوليين وتشجيعهم للتجارة واستقبالهم الوفود التجارية.

الفصل الثاني: خصص لبيان مظاهر إزدهار التجارة في عصر المماليك. وقد اشتمل على النقاط التالية. أولاً: اعتماد دول البحر الأحمر في الجانب الكبير من اقتصادها على التجارة. وقد بين الباحث مقدار ثراء حكام هذه الدول ورجال الدولة بها. كما تكلم عن ازدهار الموانىء والمدن الداخلية. وتوسع في الحديث بعد ذلك عن طائفة التجار الكارمية من حيث نشأتها وتطورها واهتمام الحكام بها وكذلك عن تنظيم هذه الطائفة وارتباطها بالدين الاسلامي وعدم قبول غير المسلمين بها وأسباب ذلك، مشيراً إلى ميادين نشاط هذه الفئة والبلاد التي يجوبونها وجهودهم العظيمة في مساندة الدول الإسلامية وموقف هذه الدول منهم. كما بين مركزهم في عهد سلاطين المماليك ووصولهم إلى المناصب العليا في حكومات البحر الأحمر. وقد وضح الباحث الخدمات الجليلة التى قامت بها هذه الفئة لخدمة الاسلام ونشره في أماكن بعيدة. وقد ختم الفصل بتراجم لبعض المشهورين من هذه الطائفة.

الفصل الثالث:

يقع هذا الفصل في قسمين. **الأول:** وصف الباحث الطرق الملاحية في البحر الأحمر مبيناً أهم المحطات والموانىء بها حيث أشتهر من هذه الطرق الطريق الساحلي الشرقي الذي يبدأ من عدن جنوباً و يسير حتى أقصى الشمال ماراً ببعض الموانىء المهمة كزبيد وغلافقة وجدة و ينبع. والطريق الآخر يمر بحذاء الساحل الغربي ماراً ببعض الموانىء المهمة مثل سواكن وعيذاب. وقد بين مزايا كل من هذين الطريقين عارضاً لبعض الطرق البرية المتصلة بهذه الطرق.

الثاني: تناول فيه الحديث عن أهم الموانىء في البحر الأحمر وهى عيذاب وعدن وجدة والسويس والطور و ينبع متتبعاً تطور كل ميناء من هذه الموانىء واسهامه في حركة التجارة العالمية بشيء من التفصيل.

الفصل الرابع: خصص لدراسة النظم المالية في دول البحر الأحمر.

تكلم الباحث فيه عن العملات والنقود من دنانير ودراهم وفلوس من حيث الأشكال والأوزان والقيمة النقدية لكل منها. ثم استعرض ما تعرضت له العملات من تلاعب وتزييف كما تطرق لدراسة العملات الأجنبية التي شاع استعمالها في هذه الدول ودور الضرب ونظامها. كذلك استعرض الباحث نظام المقايضة الذي شاع التعامل به خلال دولة المماليك وأسبابه ونتائجه وكذلك نظام الشركات الذي عرفته هذه البلاد مبيناً أنواعها ونظمها موضحاً دور الصرافين في العملية الاقتصادية. بعد ذلك تطرق للزكاة والمكوس فبين ما هو شرعي وما هو مخالف للشرع وكذلك النسب المأخوذة عن البضائع والسلع وتطور هذا النظام في مصر واليمن خلال عصر المماليك. وقد بين موقف القضاة والمؤرخين المعاصرين لدولة المماليك. هذا وقد ختم الفصل بشرح لنظام أوراق الطريق الذي سارت عليه دولة المماليك للتسهيل على المسافرين.

الفصل الخامس: اشتمل الفصل على قسمين: الأول: خصصه الباحث لدراسة المنشآت التجارية فوصف الأسواق والقياس والفنادق والخانات والوكالات معدداً بعض ما اشتهر منها في اليمن والحجاز ومصر وكذلك تحدث عن دور كل منشأة من هذه المنشآت. وفي نهاية القسم عرض للسلع المتبادلة بين الشرق والغرب مع بيان مصدر كل سلعة ونوعها وقيمتها وأهميتها. القسم الثاني: خصص للمنشآت الملاحية من سفن بحر القلزم وأنواعها وميزاتها وطريقة صنعها مقارناً بينها وبين بعض أنواع السفن الأخرى. كما تحدث عن الأسطول المملوكي في البحر الأحمر وسفنه ودور الصناعة المخصصة له. وفي آخر القسم قدم وصفاً لسفن البحر الأحمر مبيناً أهم أجزائها وعدد أطقمها من ملاحين وعاملين.

الفصل السادس: وهو الأخير من الرسالة و يتحدث فيه الباحث بعد ذلك عن الاحتكار، نشأته وتطوره وأثره على اضمحلال دولة المماليك. بعد ذلك تطرق إلى الصراع بين البرتغاليين والمماليك بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ووصول البرتغاليين للهند وموقف المماليك من ذلك. وقد عدد الحملات المملوكية التي قام بها أسطولهم ضد البرتغاليين مشيراً لبعض المعارك البحرية. وقد ختم الفصل بالصراع بين المماليك والعثمانيين حتى نهاية دولة المماليك.

وقد ختمت الرسالة بالنتائج التي توصل إليها الباحث وهي:

١ ــ تحول النشاط التجاري العالمي إلى البحر الأحمر والبلاد المطلة عليه وذلك بعد تدهور الطرق الشرقية خلال القرن السابع الهجري. وقد أصبح البحر الأحمر هو الطريق المفضل الذي سلكته معظم التجارة الشرقية. وقد أدى ذلك إلى سيطرة دول البحر الأحمر على التجارة خاصة دول المماليك التي حاولت نشر سلطانها على معظم هذه البلاد.

٢ ــ بذل سلاطين المماليك جهوداً عظيمة للنهوض بالتجارة وحماية طرقها وتحملوا في سبيل ذلك صراعات عديدة مع المغول في فارس والعراق وضد الصليبيين. وقد نجحوا رغم ذلك في اقامة علاقات تجارية مع بلاد الشرق وأوربا. كما أن سلاطين بني رسول لهم جهود مشابهة. وقد أدى تضافر هذه الجهود إلى إزدهار تجارة بلاد البحر الأحمر.

٣ ــ مع ازدهار تجارة البحر الأحمر ازدهرت بالتالي الموانىء المطلة عليه. فكانت عيذاب أعظمها على الطرق الشرقية و بدأ التحول منها تدريجياً إلى جدة والتي أصبحت مع بداية القرن التاسع الهجري متحكمة في التجارة الشرقية و بعدها عم الازدهار الموانىء الشمالية السويس والطور. أما عدن فقد ظلت طيلة عصر المماليك مفتاح البحر الأحمر من الجنوب ولم تفقد نشاطها إلا مع نهاية الدولة الرسولية.

٤ ــ سيطرت فئة تجار الكارم على تجارة البحر الأحمر في مصر والحجاز واليمن وأصابت ثراء ووصل أفرادها إلى أعلى المناصب الحكومية وقد قدموا خدمات جليلة لدولهم وللإسلام والمسلمين.

٥ ــ أدى اهتمام دول البحر الأحمر بالمرافق والمنشآت التجارية إلى تعمير المدن والموانىء والأسواق والفنادق والوكالات والقياسر والخانات وانتشرت هذه المنشآت بدرجة لم تعهدها هذه البلاد من قبل.

٦ ــ أولت الدول عناية خاصة بالنظم المالية والتجارية وقد تطورت هذه النظم في عصر المماليك حتى كان تجار الكارم يقومون بدور البنوك. كما كان لكل دولة جهاز خاص يشرف على تنظيم جباية المكوس والعشور في الموانىء والمراكز التجارية وأصبحت نسب الضرائب على كل أنواع السلع معروفة.

٧ ــ احتكر السلاطين التجارة وذلك في عصر المماليك الجراكسة وأصبحوا يبالغون في رفع الأسعار مما أدى إلى تذمر التجار الأوربيين وحكوماتهم مما دفعهم للبحث عن طرق أخرى ليصلوا إلى الشرق. و بعد أن توصلوا إلى رأس الرجاء الصالح تحولت إليها التجارة وضعفت تجارة الدول الاسلامية على البحر الأحمر وضعفت مقاومتها للأعداء حتى سقطت دولة المماليك سنة ٩٢٣هـ.

وقد ألحق الباحث بالرسالة ثلاثة ملاحق:

الملحق الأول: خطاب وجهه السلطان قلاوون إلى تجار العالم يدعوهم فيه إلى القدوم للبلاد الاسلامية خاصة مصر.

الملحق الثاني: رسالة من أحد سلاطين بني رسول لأحد السلاطين المماليك يخبره فيها بأنه أحسن معاملة مندوبيه وتجاره

وكذلك التجار المصريين و يطلب منه أن يحسن معاملة التجار اليمنيين في جميع الثغور المصرية .

الملحق الثالث: يشتمل على معلومات وافية عن كل ما يتطلب على الملاح معرفته وكذلك وصفاً للإبرة المغناطيسية .

كما تضم الرسالة جدولاً لسلاطين المماليك وكذلك سلاطين بني رسول و بني طاهر وقائمة بالأشراف الذين عاصروا دولة المماليك .

مراجع الرسالة:

عرض الباحث في نهاية الرسالة المراجع التي استخدمت في البحث وقد جاءت كالتالي !

أولا : المصادر مبتدئاً بالمصادر المخطوطة وعددها ٨ ثم المصادر المطبوعة وعددها ٩١ مصدراً .

ثانياً : المراجع وعددها ٦٤ مرجعاً .

ثالثاً : رسائل جامعية لم تنشر . ٣ رسائل باللغة العربية .

رابعاً : البحوث والمقالات العربية في ٢١ بحثاً ومقالة .

خامساً : المراجع الأجنبية .

صـــــدر حديثاً

عن دار ثقيف للنشر والتأليف

(الوجيز في الإقتصاد الإسلامي)

تأليف الدكتور محمد شوقي الفنجري .

يطلب من

دار ثقيف للنشر والتأليف

الرياض : ص . ب ١٥٩٠ ت ٤٧٨٦٥٣٢